

# ١- الأدب الاغريقي

## في عصر الاسكندرية

للدكتور محمد مندور

يذكر القراء أن الإسكندرية كانت في زمن ما عاصمة عقلية للعالم أجمع ، حتى ليصطلح علماء التاريخ على تسمية القرون الثلاثة السابقة لميلاد المسيح بمصر الإسكندرية . وهو عصر إغريقي بلغته وثقافته . ومع ذلك فن واجبنا نحن المصريين أن نعني بدراسته لا نصاله الوثيق بتاريخ بلادنا . وما نظن فهمه يستقيم ما لم نلم بملاساته التاريخية لئلا نرى كيف احتلت الإسكندرية هذه المكانة ، ونحدد أهميتها بالنسبة للعواصم الأخرى التي عاصرتها ، وبخاصة أثينا . وعندئذ سوف نرى خصائص الأدب الإغريقي في ذلك العصر تتحدد بذاتها متميزة عما عداها

ونقطة التحول كانت بلا ريب ظهور ملوك مقدونيا ، وبخاصة فيليب وابنه الإسكندر الأكبر في القرن الرابع ق . م . فإلى ذلك الحين كانت بلاد الإغريق عبارة عن مدن مستقلة ، تسكون كل مدينة وضواحيها دولة قائمة بذاتها . ومع ذلك فقد استطاعت تلك المدن أن تأتى بالمعجزات في المجال الثقافي والمجال العملي على السواء . ونخص بالذكر أثينا التي وإن لم يبلغ قط سكانها هي وضواحيها نصف المليون ؛ فقد خلفت من التراث العقلي ما لا يزال يبهشنا حتى اليوم ، كما استطاعت أن تنزع المدن الإغريقية الأخرى لترد جحافل الفرس ونجوى الحرية في بلاد اليونان كافة ، ولكنها لم تكسب تستوى في الزعامة بفضل انتصاراتها الباهرة حتى أخذها الصلف فنشرت إسبرطة الأبية ، وكانت بين الدينيتين حروب طاحنة دامت ما ينيف على ربع القرن ، وقد اشتركت فيها جميع المدن ، وخرجت منها ضعيفة منهانة . وعندئذ ظهر المقدونيون الذين امتد طموحهم إلى السيطرة على بلاد اليونان ، بل على العالم أجمع في وحدة شاملة ولكن العرين كان لا يزال به أسود وبخاصة أثينا ، حيث صمد الزعيم الوطني الشهير « ديموستين » لفيليب وابنه ، وقد رفض أن يستسلم على الرغم من ضعف مدينته ، وذلك لأنه لم يكن يعرف غير الجهاد مهما تسكن احتمالات الفوز أو الهزيمة ، وعنده أنه ليس أشرف للرجل من أن يموت وسلاحه بيده

ولا شك أن موقعة كبرونيد التي حدثت سنة ٣٣٨ ق . م . بين فيليب المقدوني وجنده من جهة ، وجيوش أثينا وطيبة من جهة أخرى ، قد كانت من المواقع الفاصلة في تاريخ الإنسانية ؛ فانتصار فيليب على ديموستين هو انتصار عالم على عالم آخر . مضى عالم المدن . . . عالم الحرية ، وحل محله عالم الحكم المطلق والروح المالية . وقتل فيليب سنة ٣٣٦ ق . م . وخلفه الإسكندر ، وكان ما نعرفه من سيطرة هذا القائد العظيم على الشرق والغرب . ومات الإسكندر سنة ٣٢٤ ق . م . وهو بعد العدة لغزو شمال إفريقيا وإسبانيا وبلاد الغال ، ليعود إلى وطنه من الغرب بعد أن تركه من الشرق . وكان في اتخاذه من بابل عاصمة للملك ما يرمز لفكرته في توحيد العالم والجمع بين الشرق والغرب . بعد موت الإسكندر تطاحن قواده على اقتسام إمبراطوريته العظيمة ، وكانت عدة معارك وعدة تقسيمات إلى أن حدثت معركة إيسوس سنة ٣٠١ ق . م . فكان التقسيم النهائي . وليس بعنينا من تلك المدة المضطربة غير نتائجها النهائية ، وقد تمخضت عن ثلاث ممالك كبيرة : مملكة أنتيجونوس بمقدونيا وبلاد اليونان ، ومملكة سايكوس بسوريا ، ومملكة بطليموس بمصر . أما مملكة أنتيجونوس فما زال اليونان ينهاضونها العداء وتناهضهم ، حتى انتهى الأمر بوقوع بلاد اليونان بيد روما الناشئة ؛ فأصبحت مقاطعة رومانية منذ سنة ١٤٦ ق . م . وإنه وإن تسكن الثقافة الآثينية لم تحب دفعة واحدة ، إلا أن مراكز الثقافة الأخرى أخذت تحتل مكانها ، ونحن لا نجد بأثينا خلال القرن الرابع غير الفلسفة والكوميديا ، وأما ما دون ذلك من مظاهر النشاط الروحي فقد ذوى . فالشعر الغنائي قد جفت ينابيعه حتى لم يعد يقصد لذاته ، بل لمصاحبة الموسيقى على نحو ما نرى في الأوبرا كوميك الحديثة . والشعر الهجائي وشعر الوجدان « elegie » لم يعودا غير عبث باطل أو سخرية مصطنعة « Parodie » . وأما الملاحم فكان عهدا قد انقضى بحيث أنه عندما كتب أنتيماخوس ملحمة عن أساطير طيبة ومغامرات هرقل لم يهز شعره نفساً ، لأنه شعر مصنوع علم الشاعر فيه أوضح من روحه ، وكذلك الأمر في التراجيديات التي لم يعد لها وجود يذكر

لم يبق إذن بأثينا من فنون الأدب غير الكوميديا ؛ فهي التي ترعرعت في ذلك الزمن ؛ وقد انتهى بها الأمر إلى ما يسمى بالكوميديا الجديدة على يد فيليمون و ميناندروس ، وهي

وهو عصر لم يكند يتأثر بالثقافات الشرقية التي عاش بينها  
بينها بحيث يحيل إلينا أن تيتيوس ليفيوس المؤرخ الروماني  
الشهير قد أصاب الحقيقة عند ما قرر أن المدن اليونانية التي  
نشأت بالشرق إذ ذاك كانت « كجزر يونانية تضر بها من جميع  
النواحي أمواج بحر من البرابرة » ، ولقد كان الإغريق ينظرون  
إلى شعوب الشرق نظرة الغالب للمغلوب ، نظرة السيد للمسود ،  
وكانت شعوب الشرق بدورها تمت أولئك الغزاة وتصدف عنهم ،  
ولقد وجدنا في دستور نيوقراطيس ما يحرم على الإغريق الزواج  
من المصريات ، وكانت مدن الإغريق في الشرق تعيش على النظام  
اليوناني ، فلكثير منها مجالس تشريعية ( إكازيه وبوليه ) ،  
وحكام يحكم المدن الإغريقية الأوربية وإن تكن اختصاصات  
تلك المجالس وهؤلاء الحكام قد كانت شكلية استشارية أكثر  
منها فعلية نافذة ، وكانت السلطة الحقيقية بيد الملك

لم يصبغ الإغريق إذن بلاد الشرق بصفتهم ولا لقنوه  
ثقافتهم في ذلك العصر ، بل ظلوا غرباء عنه لا يكادون يؤثر فيه  
أو يتأثرون به ، وإنما تداخلت الثقافات في العصر الروماني وبعد  
ظهور المسيحية حيث امتزج التفكير اليوناني بالإيمان الشرق  
في الإفلاطونية الحديثة التي هزت الروح الإنسانية كلها في  
القرنين الثاني والثالث بعد الميلاد

عصر الإسكندرية إذن عصر إغريق بحث ، وهو مجرد  
اصطلاح تاريخي . فالحديث عن أدب الإسكندرية يتناول كل  
ما قيل من شعر ونثر في البلاد اليونانية كلها خلال ثلاثة قرون .  
والملاحظ على ثقافة ذلك العهد أنها أصبحت ثقافة علمية محصلة  
أكثر منها أدبية خالقة ، كما أصبحت علمية لا قومية وصناعة  
لا حياة . ولا غربة في ذلك ، فقد انتقلت الحياة الفكرية من  
الساحات العمومية ( الأجرار ) إلى المكتاب والصالونات ،  
انتقلت من حرارة الحياة إلى برودة الكتب ، انتقلت من الحاضر  
إلى الماضي ومن الواقع إلى الفكر المجرد ، نمت الدراسات  
التاريخية : تاريخ عام وتاريخ الفن والفنانين والكتب والكتاب ،  
تاريخ الفلاسفة والعلماء . لقد ابتدأ العالم يعيش على ماضيه ، ويجد  
في ذلك الماضي خيراً من حاضره . ونمت الدراسات العلمية :  
رياضة وطبيعة وطب وتاريخ طبيعي وجغرافيا ونحو وفقه لغة  
وموسيقى وكل هذه الدراسات مع ذلك لم تكن أصيلة . كانت  
جما لا فلسفة فيه ولا نقد إلا بمقدار . لقد امتاز هذا العصر  
بثقافة موحدة سمحت حتى لذوى النفوس النافهة بأن يصبحوا

الكوميديا الأخلاقية : شيء مغاير للكوميديا القديمة ، كوميديا  
أرستوفانس . فهي لم تعد نقداً لنظم الحكم وتيارات التفكير ،  
بل تصوراً لشخصيات عادية يأخذها الشاعر من الحياة اليومية ،  
ولكنها لا تصل إلى كوميديا النماذج البشرية أمثال : ألسنت  
وهرباجون وترتيف لموليير ، تلك التي يخلقها كبار المفكرين ؛  
فيقتدى بها الناس إلى أنفسهم

ومع الكوميديا نجد كما قلنا الفلسفة ، فقد نهضت إلى  
جوار الأكاديميا والليسيه مدارس أخرى : مدرسة الرواق ،  
وحديقة أبيقور ، ثم مذهب بيرون والمذهب الكلبي ، ونحن  
وإن كنا ننظر عندئذ ، فلا نجد مقراً للفلسفة غير آئينا إلا في  
القليل من نحو ميجارا وبرقة ، إلا أننا نلاحظ أن الكثيرين  
من فلاسفة ذلك العهد قد كانوا غرباء عن آئيننا ، فزينون من  
مستعمرة فينيقية بجزيرة قبرص وكليانوس من مدينة أسوس  
بآسيا الصغرى ، وكريتيوس ولد بمدينة سوليس بآسيا الصغرى  
أيضاً . وفلاسفتهم وإن تكن إغريقية بما فيها من تحكيم العقل  
والربط بينه وبين نظام العالم إلا أنها شرقية بروحها الذي يكاد  
يكون دينياً . ولقد نادت الرواقية بالجبر وقال الإبيقوريون  
بالمصادفة ، وأنسكرو هؤلاء وجود الروح وأثبتوا أولئك وتبطلت  
الأفكار ، فانهى الأمر بالشك البيروني وامتدت كل تلك  
الآراء إلى تماثيل أفلاطون نفسه ، فإذا بالأكاديمية تقول  
بالاحتمالية ، وقد انهارت المثل فانهار بانهايارها عنصر الثبات في  
المذهب . ومن هنا يتضح كيف أن كل هذه الفلسفات برغم ما في  
بعضها من نبيل كالرواقية لم تكن بلاربي إلا السبيل الذي قاد  
إلى الانحلال ، وفيها إنكار للإرادة البشرية أو استسلام لأحداث  
الحياة أو توقف في الحكم ، فيها عنصر سلبي خليق بأن  
يقوض حياة الشعب

ذلك ما كان من أمر آئيننا التي لم يعد بها كما رأينا غير  
الكوميديا والفلسفة ، ولكن الملكتين الأخريتين قد نشأت  
بهما مراکز فتيمة للثقافة ، ففي آسيا الصغرى وسوريا نشأت  
بمملكة السيليكين مدن كبيرة كبرجاما وأنطاكية ، وفي مصر  
نشأت بمملكة البطالسة الإسكندرية ونيوقراطيس وبتولمانييس  
وإنه وإن تكن كل تلك المدن قد ازدهرت فيها الحياة  
المادية والروحية إلا أن واحدة منها لم تبلغ ما بلغته الإسكندرية ،  
ومن هنا بصطلاح علماء التاريخ ، كما قلنا ، على تسمية العصر الذي  
يقع بين الإسكندر الأكبر ولأوغسطس أمبراطور روما باسمها .

أدباء وشعراء وبذلك اختلفت الفروق الشخصية ولم يعد للأسلوب الفردى غير وجود محدود

في هذا الوسط الملى نشأ أدب الإسكندرية ؛ فكان نصف قائله من العلماء . وفهم اليون الشاسع بين هذا الأدب والأدب الإغريقى القديم لا بد من أن ننظر في نشأة الفنون الأدبية المختلفة نظرة عاجلة

نشأت فنون الأدب القديمة نشأة شعبية ، فالقصص والغناء وإن كانا قد ظهرا معاً ملازمين فيما يبدو لنشأة الإنسانية ، إلا أن القصص الأدبى قد سبق الغناء ؛ فأعمال البطولة الماضية أفلت في خيال الرجل الفطرى من الحاضر والقصص خلت بأن تستجيب له نفوس رجال يعيشون في نظام ملكى ، حيث للملك هبة وجلال يحملان أفراد الشعب على الإعجاب بالأبطال السابقين . وكانت الشعوب في جملتها زراعا وبحارة وعمالا لا يجدون في عملهم اليومى غير حرارة التى تشغلهم حيناً ، ثم ينفضى العمل غير مخلف ما يشغل النفس ، أو يهز الخيال .

ولهذا صادفت ملاحم هوميروس ظمأ في النفوس حتى كان القرن الثامن ق . م . وقد انهارت الملكيات وحلت محلها نظم أرسطوقراطية أو ديمقراطية لا يتخللها الاستبداد الفردى إلا من حين إلى حين ، وتقهقرت الحياة الجماعية القبلية وأخذت الشخصية البشرية تظهر وسط المجموع ، وأصبح الحاضر يشغل الناس ويهتمون به ناظرين فيما يحمل من مسرات وآلام ، فظهر الشعر الفنائى بما يحمل من عنصر شخصى ومن أسداء الحاضر . وسارت الحياة وقد أصبح الإغريق لا يقنع بالقصص أو الغناء بل يود لو تصور حياته وحياة آلهته ليراها بسينى رأسه ويشهد أحداثها بما فيها من معان فنشأ الشعر التمثيلى في القرن الخامس وكانت نشأة تلك الفنون موزعة بين الشعوب الإغريقية ،

فالقصاص نشأ في إيوليا بآسيا الصغرى حتى ليكاد ينحصر الخلاف الجدى عن مولد هوميروس بين جزيرة كيوس ومدينة أزمير ، ومن إيوليا انتشر في إيونيا لينتهى أخيراً إلى أنيكيا بأوروبا حيث دون بأمر بيزستراتس مستند آئينا في القرن السادس قبل الميلاد . وأما الشعر الفنائى فقد ظهر موزعاً حسب أنواعه . فالأغاني الشخصية : أغاني الشراب والغرام ولدت وازدهرت بلزبوس الإيولية . جزيرة « أنسية » و « سافو » تلك التى قالوا إن رأس

أورفيوس قد أرست بها فأوت إلى أحد خلجانها . وشعر الجوقات ، شعر الجماعات ، شعر النصر والمواكب قد نشأ بين الشعوب الدورية الخشنة المحمولة على الجهاد النازعة إلى الحياة القبلية والنظم الأرسطوقراطية : ففى طيبة ولد ينداروس وباللجة الدورية كتب أناشيد النصر التى لدينا . والشعر الهجائى وشعر الوجدان ذهبت بهما القبائل الأيونية ، وأما الشعر التمثيلى ففى آئينى في جوهره

ولقد كان لنشأة تلك الفنون بين هذه الشعوب ما يبررها ، فالجنس الإيولى جنس صرهف الإحساس فنان المزاج مقبل على الحياة متأثر بأحداثها ، والجنس الدورى كما قلنا جنس خشن مولع بالمبارك والانتصارات والإيونيون قوم أغنياء بمالهم وبحياتهم العقلية ، والسخرية والوجدان خصائص تلازم حساسية العقل ولين الحياة . وأما الآثينيون فأهل نشاط غلى وإقدام على المفامرات ولا شك أن في المسرح ما يرضى تلك النزعات

هكذا نشأت فنون الأدب ، شعبية إقليمية . ومع ذلك لم تلبث أن أصبحت إغريقية عامة ، فتكونت لغة قصصية مزيج من الإيولى والإيونى والآتيكى ولغة إيولية للأغاني الشخصية ولغة دورية لشعر الجوقات ثم اللغة الأتيكية المسرح . وبلغ من ثبات تلك اللغات الأدبية وتخصصها أن رأينا شعراء آئينا مثلاً يكتبون باللغة الدورية الأجزاء الفنائية من مسرحياتهم

تكونت إذن لغات أدبية مصطنعة ، ولكن ذلك لم ينل من قوة الأدب الذى ظل متصلاً بالحياة حتى جاء عصر الإسكندرية ، وقد اختلطت في المدن الجديدة الأجناس وأنهار استقلال المدن القديمة وجفت الحياة العامة فنضبت بنابيع الأدب الذى لم يعد يتجه إلى الشعوب بل إلى نخبة من المثقفين . لم يعد خلقاً تلقائياً بل صناعة أو تزجية فراغ . لقد حلت فيه المهارة محل العبقرية ، حل العلم محل نبض الحياة ، حل الظرف والكياسة محل وثبات القلب وتأجيج القرائح

أقد نشأ أدب الإسكندرية بعيداً عن الشعب ، بعيداً عن الحياة ، فجاء الكثير منه أدباً متكلفاً قليل الحظ من الصدق

أدب الإسكندرية كنبات في بيروت من زجاج . ومع ذلك لم يذو النبات كله كما سترى في المقال الآتى .